بسم الله الرحمان الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية

الأستاذة الدكتورة: ليلى لعوير

الملتقى الدولي والموسوم بـ:

"المدخل السياقي للحديث النبوي الشريف: أسسه النظرية، وتطبيقاته عند أعلام الجزائر وتونس"

يومي 26-27 نوفمبر 2024 ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة وجامعة الزيتونة-تونس

عنوان المداخلة: استلهام الحديث النبوي الشريف في مدحية: ' مما يمدح عند الغمة والغياهيب المدلهمة' لعبد الكريم بن محمد الفكون (ت1073هـ/1662م)'.

الملخص:

تحاول هذه المداخلة الانفتاح على مدونة مدحية نبوية للشيخ الشاعر عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني المتوفى1073هـ/1662م، و المسماة: **مما يمدح عند الغمة و الغياهيب المدلهمّة**، وهي من المدوّنات المخطوطة المغمورة في التراث الأدبي

الجزائري ، وقد رأت النور بعد أن حقّقها مؤخرا الأستاذ الدكتور أحمد فرقاني الذي أبرز قيمتها الشعرية وقيمة مؤلفها الذي يعتبر من أشهر أعلام عصره الذين لم يلتف الدارسون لمنجزاته بالتعريف والقراءة والنقد على كثرتها. وبالتالي رأت هده المداخلة الكشف عنهاو عن جمالياتها من زاوية استلهام الشيخ الشاعر عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني للحديث النبوي الشريف من خلال سياقاته المنفتحة على الرؤية الإسلامية بأبعادها الروحية والجمالية وإشاريّاته التي يتوسّدها متكأ، لكل بلاغة معنوية أو لفظية جعلت المدحية واحدة زمانها في الجزائر .

In the name of God, the Most Gracious, the Most Merciful

Emir AbdulKader University of Islamic Sciences

Faculty of Arts and Islamic Civilization

Department of Arabic Language

Professor Dr. Leila Laouir

Conference Title: **The Contextual Introduction to the Noble Prophet's Hadith; Its Theoretical**

Foundations and Its Applications among the Scholars of Algeria and Tunisia.

Conference Participation Title: **Inspiration from the Noble Prophet's Hadith in Praise**: **'What is Praised in the Time of Grief and Thick Darkness**. **'By Abd al-Karim bin Muhammad al-Fakun al-Qasantini (d. 1073 AH/1662 AD)'**.

Abstract: This study attempts to be open to a prophetic eulogy by the poet Sheikh Abd al-Karim bin Muhammad al-Fakun al-Qasantini, who died in 1073 AH/1662 AD, that is called: **What is Praised in the Time of Grief and Thick Darkness** . It is one of the unfamous manuscript corpuses in the Algerian literary heritage. It saw the light after it was recently checked out by Professor Dr. Ahmed Fergani, who highlighted its poetic value and the value of its author. Though the poet was considered one of the most famous figures of

his time, scholars did not pay attention to his achievements through defining, reading, and criticizing despite their abundance. Therefore, this study seeks to reveal its aesthetics from the angle of the inspiration of the poet Sheikh Abdul Karim bin Muhammad Al-Fakon Al-Qasantini from the noble Prophetic hadith through the eulogy's contexts that are open to the Islamic vision with its spiritual and aesthetic dimensions and its connotations for every moral or verbal eloquence that made the praise the One of its time in Algeria.

إن القصائد الجزائرية في مدح خير البريّة محمد صلى الله عليه وسلّم كثيرة و مبثوثة في متون مختلفة، عشنا عمرا علميا طويلا لم نلتفت لها ،ولم نلتف كباحثين حولها برغم عظم الممدوح، كنموذج كامل ومكانته في الضمير الجمعي الإسلامي، الذي اعترف بمقامه المحمود ودعا الله أن يؤته إيّاه في يومه الموعود .

عشنا نقرأ لكعب بن زهير، وحسان بن ثابت و أم سعدونة و البوصيري وصفي الدين الحلي وابن جابر وعائشة الباعونية وأحمد شوقي ..... وغيرهم كثر، في امتدادات المديح النبوي ، وأغفلنا لحين ثراتنا الجزائري الزاخر بقصائد الحب والوجد و الشوق التي مدحت سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشادت بصفاته وأخلاقه وسيرته العطرة ،وكانت لآلئ نادرة تجاذبتها أقلام شعراء هم قناديل ظل لا نعرف أكثرهم و يحتاجون إلى الخروج بروائعهم في أحسن صورة وأوضح معلم ك: أحمد بن عبد الله الزواوي ، أحمد المانجلاتي وعمار بن عبد الرحمان ، ومحمد بن محمد بن علي ومحمد بن الشاهد ومحمد بن محمود ابن العنابي الجزائري ومحمد بن الحفاف وأحمد بن إبراهيم البابوجي وعبد الحليم بن سماية وشعيب أبي مدين وغيرهم كثر.1

وبفضل صاحب الجهد العارف الأستاذ المحقق الدكتور محمد فرقاني الذي شرّفني بالتقديم لهذه المخطوطة الثمينة في نسختها الوحيدة التي لم تتداول بعد، والتي كان له السبق في كشفها للناس ، نتعرّف على سفر شعري خط بحروف من حب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم موسوم ب:"**مما يمدح عن الغمة و الغياهيب المدلهمّة** لأبي محمد عبد الكريم بن محمد الفكون 2 المتوفي1073/988هـ،هذا الشاعر الذي ظلت قصيدته التي بلغت 725بيتا مغمورة نائمة ، وظل هو ـ على شرف نسبه وعراقة أهله وإبحارهم في عوالم اللغة والنحو والتفسير والفقه وتصدّر القضاء والتصدي للفتوى وقيادة ركب الحج في قسنطينة إبان الحكم العثماني ـ مغمورا أيضا يطويه النسيان والكتمان لا سيما عند الأدباء، كما يطوي مدحية أولى بعنوان: **شافية الأمراض لمن التجأ إلى**

الله بلا اعتراض، أو **العدة في عقب الفرج بعد الشدة** هذه الأخيرة التي تجاوزها إلى كتابة القصيدة المخطوط، و التي نصحه و أشار له بها والده توسلا لله بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم طلبا للشفاء الذي طال انتظاره بعد إصابته بمرض عضال، عظيم الوبال، أقعده عن الحركة و دام ما يقارب ست سنوت تكدرت فيها حياته وحياة أهله .

إنّ ما يثير الإعجاب هنا ،أن هذه القصيدة التي أعتبرها ديوانا على وحدة موضوعها أو يمكن أن نسميها القصيدة الديوان شملت ـ على ما أشار إليه المحقق ـ تسعا وعشرين قصيدة ، وكل قصيدة كتبت بحرف من حروف العربية مع احتساب لام ألف لدى الشاعر، أبانتها القافية وشملت خمسة وعشرين بيتا أبحرت جميعها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم توسلا به ، وتمجيدا لسيرته ومسيرته وشفّرت بجملة استخرجت من جمع كل الحروف التي تقرأ من أول كل بيت وهي " اللهم اشفني بجاه محمد آمين" هذه الجملة التي تتكون هي أيضا من خمس وعشرين حرفا في إشارة عميقة إلى دلالة هذا العدد"25" 3ـ الذي هو من مضاعفات العدد خمسة ـ المفتوح على تأويلات عدة ، ترتبط عند الصوفية في مدّها التخييلي بتغير الحال إلى الأفضل وحماية الله للعبد من كل شر ، وقدرته على الصبر في مواجهة مشاكل الحياة، كمخرج تفاؤلي ترصده أوّليات الأبيات في كل حرف من كل قصيدة ، لتومىء أيضا إلى ذلك الحس الصوفي الذي تحمله لغة الأسرار الصوفية برموزها وإشاراتها وأعدادها وذلك البعد الإيماني المرتبط بالخلوص الكلي لله في محبة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الحب الذي يوجهه

المنطق والعقل الباطن بامتلاءات المعرفة القلبية. التي تأبى أن تكشف الأسرار التي تعتقد في ارتباط العدد والحرف بسر الحياة.

إن ما يثير الإعجاب أيضا أن هذه القصيدة الديوان، تفردت بميزة خاصة وهي مدحها للنبي صلى الله عليه وسلّم بحروف العربية التسعة والعشرين ـ مع احتساب لام ألف ، وهذا سبق مدحي ملفت ينّم عن بعد دلالي عميق يرتبط بلغة الضاد التي تتسع للمديح النبوي وتزيد... وحروفها خالدة بخلوده صلى الله عليه وسلم في الذاكرة الإنسانية في بعديها الزمني و اللازمني .ويشي بالملكة الرياضياتية الرمزية التي يحملها الشيخ الشاعر أبومحمد ،عبد الكريم الفكون وهو يتوسل إلى الله ـ عز وجل ـ بالنبي صلى الله عليه وسلم لإجلاء الغمة، غمة المرض وغياهيب الظلمة، ظلمة العذاب والألم والمعاناة التي نخرت عميقا في جسده وفي من حوله ، .متوسدا بحر الطويل بحرا لقصائده كلها، لاسيما وأنه أعلى البحور درجة في الافتنان وأحفلها بالجلال والرصانة والعمق، على ما أورد حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، فثلث الشعر قديمه ووسيطه وحديثه نظم عليه لمناسبته مقام الوجع والوله والتأوّه.

وهو يليق بهذا المقام في القصيدة الديوان ،المليئة بالوجد والوجع و الدلالات الشعورية التي أكسبت الوزن خصائص وصفات تتوافق وتستجيب لتجربة الشيخ محمد عبد الكريم الفكون المحلّقة في سماوات التوسّل والإبداع.

في الحقيقة لقد أبهرني طول نفس الشاعر وانتقالاته الوجدانية الشعورية المحمولة على نفس معذبة ، تنقل الوجع حبا للرسول صلى الله عليه وسلم وتوسّلا به ، حبا يتسلل بين المعاني والقصائد بإيقاعات الروح التي تطلب الخلاص في ارتقاء روحي متعدّد الصور والمقامات ،متنوع الأنفاس والخلجات التي يحسن بها تعليل وتوضيح وإيجاز سرّ البوح وسرّ المدح أيضا.

لقد ذكر تاريخ الأدب العربي4 أن أشهر قصيدة في المدح ، انتشرت بين العامة والخاصة هي بردة محمد بن سعيد البوصيري التي أنشأها في القرن 7هجري ، وكانت بردة المشرق بلا منازع، وبداية التأصيل لفن المديح النبوي على ما ذكر زكي مبارك في كتابه المدائح النبوية، وغفلوا عن بردة أخرى جليلة، هي بردة المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ التي أسكتها صاحبها الشيخ عبد الكريم الفكون ـ على شهرته في عهده ـ حين امتنع عن نشرها وأوصى ابنه بذلك برغم إسهاماته الكثيرة في حركة التأليف حيث ترك مجموعة من التآليف لا يفوقه فيها كثرة إلا معاصره أحمد المقري صاحب كتاب نفح الطيب كما تنوّعت تآليفه ، فشملت الأدب والنحو والاجتماع والدين كما هو مذكور في كتابه **منشور الهداية** الذي حققه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله.

والحق أن الجامع بين البردتين ـ إن صحّ لي هذا التخريج ـ هو اليقين في الله و المحبة للرسول صلى الله عليه وسلم وصفاء الروح و غمة المرض الذي ألم بكليهما ، فكتبا بروح صوفية راسخة ولغة وجدانية بسيطة غير معقدة الوجد المحمدي، قصائد

خالدة باركها النبي صلى الله عليه وسلم حين تكشّف لكليهما في المنام فرمى على البوصيري بردته وأهدى الشيخ الفكون عنوان القصيدة الديوان على ما روى كلاهما وهذا لعمري بعض من تأثير معنوي صوفي ظاهر ،وبعض من أسرار القبول التي تفهم عند الصوفية عبر الذوق والكشف والمكاشفة، وترفض عند من لا يعتقد في ذلك .

صحيح أنّ مدح النبي صلى الله عليه وسلم ـ في خطوطه العريضة يدور حول عدة اتجاهات تبدأ من تعظيم أمره، ووضعه في المرتبة العليا بالنسبة لبقية الأنبياء والرسل والتعبير عن العواطف الخاصة التي يجيش بها صدر الشاعر مع الحديث عن معجزاته وهو باب مفتوح على مصراعيه وجرى به الخيال إلى أبعد مدى بحسب قول الدكتور أحمد مكي في كتابه مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، ولكنه في نفس الشاعرين تعداه إلى التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم ـ لأجل الشفاء، لطفا بالحال وسترا للمآل في وجد صوفي هائم يتكرر في كل القصائد.

وهو طاغ عند عبد الكريم الفكون ويكاد يكون الغالب في كل القصائد التي تنتهي بلازمة عمودية تلبس الموضوع العام في المدح وهو التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم طلبا للشفاء والذي عبرت عنه القصائد الخمس والعشرين وترجمت عنه جملة اللهم اشفنا بجاه محمد آمين التي تتكرر مع كل قصيدة. وقد عمد لتجسيد مضمونه هذا إلى استلهام الحديث النبوي الشريف في نصوصه استلهاما إشاريا في معظمه ليفتح الآفاق واسعة نحو التعريف بالنبي و بحقائق السيرة النبوية وأحداثها ورموزها من جهة

ونحو صبغ النصوص بصبغة فنية جمالية تزيد في تعميق القصائد وتجميلها من جهة أخرى من خلال استخدام صياغات وعبارات نبوية تمتزج بنسيج الخطاب الشعري وتتداخل معه لتنقل وجد الشاعر وتوصيفه للنبي صلى الله عليه وسلم وذكر فضله على باقي الأنبياء ففي قافية الألف التي هي عنوا ن أول القصيدة يقول:

أبدر بدت في الخافقين سعوده ونورا به الأكوان أضحت تلألأ

هو الغيث أحيا الأرض بعد مواتها وخاتم كل الرسل والله مبدأ5

يرى ذا لواء الحمد في الحشر إذ غدا مكينا وفي الأهوال للخلق ملجأ

بمولده للأرض فخر على السما وحق لها بالفخر وهو المنبأ

حوى ليلة المعراج كل فضيلة وأمّ بها نعم الإمام المبرّأ6

إن هذه الأبيات كمثل تتضمن حشدا من المفردات التي تشير إلى الأحاديث النبوية[لواء الحمد،ملجأ،ليلة المعراج،الإمام] ففي قوله:

يرى ذا لواء الحمد في الحشر إذ غدا مكينا وفي الأهوال للخلق ملجأ 7

إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي :عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي،وأنا أول من تنشق عنه

الأرض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات،فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك فيقول : إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض...8

وفي قوله:

حوى ليلة المعراج كل فضيلة و أمّ بها نعم الإمام المبرّأ 9

إشارة إلى صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراءالمعراج بالأنبياء إماما ببيت المقدس فقد جاء في حديث أخرجه ابن السعد عن الواقدي بإسناد جمعي فكان مما ذكر... ورأيت الأنبياء جمعوا لي ،فرأيت إبراهيم وموسى وعيسى فظننت أنه لا بد من أن يكون لهم إماما فقدمني جبريل حتى صليت بين أيديهم10 والشاعر إذ يستلهم هذه الأحاديث فهو يوشي قصيدته بسحر هذه الدلالات على أبياته وهو يتحدث عن ميلاد أكمل نموذج في تاريخ البشرية

وبطريقة الاقتباس الاشاري يستمر الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ففي قافية الباء التي يبوح فيها ابن الفكون بحبه وكلفه بالنبي صلى الله عليو وسلم يتجلى استئناسه الإيحائ الدائم بالحديث النبوي وإشارته المستمرة لما حدث في الإسراء و المعراج يقول :

منحناك قربا لا لغيرك مطمع إليه وأعطيناك ما كنت تطلب

مناك سراح الطرف متع تطولا أزلنا عن الأبصار ماكان يحجب

دنوت وحيدا إذ دعيت لحضرة بها الأين والأثار تفنى وتذهب

حضيت بما حليت من خلعة البها وطوقت فرضا بالمهابة يرقب

أتيت كليم الله بعد تردد إليه بتخفيف لما كان يصعب11

وهو في هذه المرة يشير إلي ما حصل من فرض الصلوات ومروره صلى الله عليه وسلم على كليم الله موسى عليه السلام وسؤاله لرسولنا عن عودته عما أمر به "فأخبره فمررت على موسى فقال: بما أمرت ،قال أمرت بخمسين صلاة كل يوم /قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قدجربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فكرر ذلك خمس مرات وفي كل مرة يضع عنه عشر صلوات وفي الخامسة أمر بخمس صلوات فلما عادد طلب منه أن يعود إلى ربه يسأله التخفيف فقال له صلى الله عليه ويلم سألت ربي حتى استحييت ولكني أرض وأسلم قال فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وهو حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ابن مالك12

إن مدحية الشاعر القسنطيني تستشف جمالها من مرويات الأحاديث النبوية ففي قافية التاءمثلا إشارة إلى ما حصل يوم مولده صلى الله عليه وسلم من رؤية كسرى التي أنبأت بسقوط عروش الكفر في قوله:

لمولده الأوثان خرت وأطفئت لفارس نار الشرك من غير مرية

مبان لكسرى قد تداعت أذن بحيرة غاض الماء من بعد جريةي

معالم كل الكفر قد طمست فلا يرى النور إلا من سنا خير طلعت13

إن هذه الأبيات الثلاث بملفوظاتها ذات التركيب "لفارس نار، مبان كسرى، بحيرة غاض الماء" حمولات دلالية عن الحديث الذي أخرجه البيهقي " ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاده"14

لقد انتهج ابن الفكون في قوافية التي تعني قصائده ،وسماها قوافي قصدا لما فيها من أسرار الرجاء في الشفاء ، نهج المبحر في عوالم الرسول فهو ينتقل بين القصائد كرحالة في كل مرة ليكشف مباهجه ويقدم للمتلقي من جمال سيرته صلى الله عليه وسلم ما يدفع لمحبته التي استغرقته حد الصبابة يقول في قافية الثاء

أيا حاذي الأضغان مهلا فإنني حليف الضنى والوجد للدمعيبعث

أعاني من الأشواق لوعة لاعج لناظر عيني ثم في الروع ينفث

شققت لأهل الكفر بدرا تقرحا فما كان إلا كيف شاءوه يبعث

فأشبعت يا مختار من تمر قبضة عيانا لما باركت من كل يغرث

نطقت وجيزا والفوائد جمة وقاتلت بالأملاك من كان يخبث15

إننا نلمس في هذه الأبيات بالاتكاء على ألفاظ مثل "تمر قبضة ونظقت وجيزا الإشارة في الأولى إلى معجزة إشباع الجيش من قليل من التمر مرارا منها ما ذكره ابن إسحاق عن حفنة التمر التي ذهبت بها ابنة البشير بن سعد أخت النعمان بن بشير وأمرتها أمها أن تذهب بها إلى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة غذاء لهما فلما مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه منها ثم صبه فوق ثوب ثم أمر أن يدعى أهل الخندق للغداء فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلو يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب 16

أما الثانية" نطقت وجيزا إشارة إلى ما أوتيه النبي من جوامع الكلم قال أبو هريرة :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب وبينما أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي"17

ان الذي نلحظه على مستوي قوافي /قصائد/ الشاعر ابن الفكون أنها مليئة بالاحالات إلى الأحاديث النبوية التي لا يتسع المقام لذكرها جميعا وهي في عمومها موظفة توظيفاانزياحيا ومصوغة صياغة تتوافق وتتماشى مع تجربته الشعرية الألمية حيث غير في البناء اللفظي والأسلوبي عن طريق الاستخدام الإشاري لكلمة أو كلمتين تفجيرا للدلالات والمعاني الكامنة في الحديث النبوي وإغناء لتجربته الشعرية التي وطنت معاني المديح في الشعر الجزائري وأعطت مساحة

واسعة لاكتشاف مدى إلمام الشيخ الفكون بالسيرة النبوية دقها وعظيمها ومدى استئناسه لكنوز ها التي لا تنفذ

الهوامش:

1 للتوسع انظر مراد بن علي وعمارة:القصائد الجزائرية في محامد خير البشرية،منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ،الجزائر،قسنطينة عاصمة الثقافة العربية ط 1،ج1 سنة 2015 ،ص 5

2 للتوسع انظر:[1] – أبو القاسم الحفناوي، "تعريف الخلف برجال السلف"، (ط.2)، مؤسسة الرسالة، 1405ه/1985م، ج1، ص 166.

[1]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في حال من ادّعى العلم والولاية، (ط.1)، تحقيق أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1408ه/1987م، ص 48.ا[1]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، (ط.1)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1406ه/1988م، ص 38.[1] – جميلة معاشي، أسرة الفكون –شيوخ الإسلام وشيوخ بلد قسنطينة– من عزّ العثمانيين إلى ذل القسنطينيين، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، ع 16، 1435ه/ 2019م.

3انظر طارق زينان:الرمزية الحرفية في العرفان الصوفي مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميةمجلد12ع24سنة2019ص163

4 الطاهر أحمد مكي :مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن: عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،ط 1سنة 1994ص32'

5 محمد عبد الكريم الفكون:مما يمدح عند الغمة والغياهيب المدلهمة ،تحقيق أحمد فرقاني،دار رؤية فكرية للنشر والتوزيع ط1،سنة2023 ص69

6المصدرنفسه ص70

7. المصدر نفسه70

8الحديث أخرجه البخاري

9الديوان ص70

10. سنن النسائي بأحكام الألباني ج1ص221

11 الديوان ص78

12 أخرجه البخاري

13الديوان ص79

14 الحديث أخرجه البخاري

15 الديوان ص79

16 الديوان ص85

17 ابن هشام :السيرة النبويةج2ص238